٢ - الحمادون الثلاثة

للدكتور جواد علي

وروى الرواة قصة حماد التي ذكرناها بشكل آخر قابل للتصديق موافق للعقل ، فلم تدخل إليها المبالغة على الطريقة التي رأيناها في قصته مع هشام وردت في كتاب « العقد الفريد » بهذه الصورة : جلس الوليد يوما وجارية تغنيه ، فأنشدت الوليد :

قينة في بيتها إبريق .

فاستنشده حماد الراوية ، فقال :

ثم نادى ألا اسبحوني فقامت قينةٌ في بيتها إبريق
قدّمته على عُقار كميت الديك صفى سلافه الرّاووق
حرة قبل مزجها فإذا ما مزجت لذ طعمها من يذوق[1]

وبعض ما تردد في صفحات الكتاب كله في تفسير تلك العوارض الاجتماعية .

فمن الجرأة التي لا توصف إلا بأنها جرأة الجهل ، أن يحاول عمر من الأعمار ستر هذه الحقيقة عن الأعين ، وهي تعد بعشرات الألوف .

ونحن لا يعنينا الأمر ، لأنه لا يضير كتابنا عن عبقرية الإمام ؛ فإن عبقرية الإمام لا يحجبه كلام يلفظ به عمر من الأعمار .

ولكننا ننبه إليه ؛ لأن سكوتنا عنه بعد عجيباً جداً في هذا الزمن وفيما بعد هذا الزمن ، ولأن فحة الجهل خليقة أن تزجر ، ليتعلم الجهلاء كيف يكتبون حين يريدون الثناء على مؤلف من طراز كتاب عثمان .

فهذا الكتاب من مؤلفات العصر التي يستطيع الناقد الخبير أن يثني عليها ولا يقول فيها إلا حقاً . فإذا لجأ إلى الباطل في الثناء عليه فإنما يسيء إلى نفسه ويسيء إلى الكتاب : يسيء إلى نفسه ، لأنه يفضح عجزه ؛ ويسيء إلى الكتاب ، لأنه يرى الناس أنه يحتاج إلى الباطل ليظفر ببعض الثناء .

عباس محمود العقاد

(١) العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي جـ ٥ ص ٢٢١ بتحقيق محمد سعيد العريان .

وهي نفس الحكاية كما رأيت غير أنها دون مبالغة ولا تهويل ، كما أن الخليفة الذي حدثت معه هذه الحكاية هو الوليد وليس الخليفة هشام وهو أمر مقبول معقول يجوز صدوره الوليد ، ولم يذكر بهذه الرواية عن أمر استدعائه شيئاً .

وفي « الأغاني » قصة أخرى مصدرها « حماد » والحاد صاحب القصة هو الوليد ، وردت على هذه الصورة :

كتب الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر :

أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فسرّح إليّ حماداً الراوية أحبّ دابة من دواب البريد وأعطه عشرة آلاف درهم يتهيأ به .

قال فأتاه الكتاب وأنا عنده فنبذه إلي ، فقلت السمع والطاعة فقال يا ذكين ، مُرْ شحرة يعطيه عشرة آلاف درهم . فأخذت فلما كان اليوم الذي أردت الخروج فيه أتيت يوسف بن فقال يا حماد ، أنا بالموضع الذي عرفته من أمير المؤمنين ، ولـ مستغنياً عن ثنائك . فقلت اصلح الله الأمير « إن الدوان لا الحرة » وسيبلغك قولي وثنائي . فخرجت حتى انتهيت إلى الو وهو بالبخراء ، فاستأذنت عليه فأذن لي ، فإذا هو على سرير ممهّ وعليه ثوبان أصفران : إزار ورداء يقيئان الزعفران قيئاً ، و عنده معبد ومالك بن أسمح وأبو السمح وأبو كامل مولاه ، فتر حتى سكن جأشي ، ثم قال أنشدني :

أمن المنون وريبها تتوجع فأنشدته حتى أتيت على آخرها

ولا تستبعد حكاية طلب الوليد لحماد فقد كان « حماد » ، المقربين للوليد ، وقد كان يقصده عند الحاجة فيحصل على هد ثم يرجع كما كان يجالسه ويدخل مجلسه[2] . وكان الوليد يـ إلى الشعراء والأدباء وأهل الفن . ويجوز أن يكون فيما ذ عن « يوسف بن عمر الثقفي » مبالغة إذ لم تكن صلاته بالو على الصورة التي ذكرها « حماد » : كان على العكس مقربا له طيلة مدة حكم « الوليد » إلى أن قتل ، فغضب عليه « يزيد وعزله عن العراق ثم قتل بعد ذلك سنة ١٢٦ للهجرة[3] .

كان حماد شيطاناً خبيثاً ماكراً يستطيع استخراج ما القلوب . وكان يمضي وقته في الداعبات والمهاترات وقول الش

(١) الأغاني جـ ٢ ص ٢١٠

(٢) Ensy' of Oslam' Vol H' p 1177 '

(٣) ابن خلكان ترجمة ٨٠٣ ، ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٢٤

جاء فى العقد الفريد : إنه كانت فى أبى عطاء السندى لثغة قبيحة ، فاجتمع يوماً فى مجلس بالكوفة فيه حماد الراوية ، وحماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان ، وبكر بن معمر ، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : ما بقى شىء إلا وقد تهيأ فى مجلسنا هذا . فلو بعثنا إلى أبى عطاء السندى ؛ فأرسلوا إليه فأقبل يقول مرهبا ، مرهبا هيا كم الله . وقد كان قال أحدهم : من يحتال لأبى عطاء حتى يقول جرادة ، وزج ، وشيطان ؟ فقال حماد أنا ، فقال يا أبا عطاء ، كيف علمك باللغز ؟ قال هـن ، يريد حسن ، فقال له .

فما صفراء تكنى أم عوف كأن سويقتيها منجلان

قال زرادة ؛ فقال أصبت ؛ ثم قال :

أتعرف مسجداً لبنى تميم فويق الميل دون بنى أبان ؟

قال فى بنى سيتان ، فقال أصبت ، ثم قال :

فما اسم حديدة فى الرمح ترمى دوين الصدر ليست بالسنان

فقال زُرّ ، فقال أصبت [1]

وكان حماد كسائر أهل الكوفة يفضل « الأعشى » على شعراء الجاهلية . قال يحيى بن سليم الكاتب :

بعثنى أبو جعفر أمير المؤمنين بالكوفة إلى حماد الراوية أسأله عن أشعر الشعراء ، فأتيت باب حماد فاستأذنت وقلت : يا غلام ! فأجابنى إنسان من أقصى بيت فى الدار فقال من أنت ؟ فقلت يحيى ابن سليم رسول أمير المؤمنين . قال ادخل رحمك الله ! فدخلت أتسمّت الصوت حتى وقفت على باب البيت فإذا حماد عريان على فرجه دَسْتجه شاهفرم ، فقلت إن أمير المؤمنين يسألك عن أشعر الناس ، فقال نعم ، ذلك الأعشى صناجها [2]

وهذه القصة على ما يخيل إلى هى من وضع رواة الكوفة الذين كانوا يتعصبون للأعشى على سائر الشعراء ويقدمونه على الجميع ؛ وإلا فقد كان بوسع الخليفة استدعاء الراوية إليه واستطلاع رأيه وأخذ الدليل . وكان أهل الكوفة يتعصبون للأعشى نكاية بالبصريين الذين كانوا يتعصبون لامرئ القيس [3]

والظاهر أن العباسيين لم يكونوا يعطفون عليه حتى ولا أعوانهم مثل أبى مسلم الخراسانى ، بل كان الراوية يخاف منهم ويتعمد عنهم كلما استطاع ذلك . كالذى جاء فى حديث حماد عن استدعاء أبى مسلم الخراسانى له حيث يقول : أرسل إلىّ أبو مسلم ليلا ، فراعنى ذلك ، فلبست أكفانى وحنيت ، فلما دخلت عليه تركنى حتى سكن جأشى ، ثم قال لى ما شعر فيه أوتاد ؟ قلت من قائله أصلح الله الأمير ؟ قال لا أدرى . قلت فمن الجاهلية أم شعراء الإسلام ؟ قال لا أدرى . قال فطرقت حيناً أفكر فيه حتى بدر إلى وهمى شعر الأفوه الأزدى حيث يقول :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والبيت لا يبتنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتادُ

فإن تجمع أوتاد وأعمدة يوماً فقد بلغوا الأمر الذى كادوا

فقلت هو قول الأفوه الأزدى أصلح الله الأمير ، وأنشدته الأبيات ، فقال صدقت ، انصرف إذا شئت ! فقمت ، فلما خطوت الباب لحقنى أعوان له ومعهم بدرة فصحبونى إلى الباب ، فلما أردت أن أقبضها منهم قالوا لابد من ادخالها إلى موضع منامك فدخلوا معى ، فعرضت أن أعطيهم منها شيئاً فقالوا لا نقدم على الأمير [1] . ثم من يدرى فلعل الخوف هو الذى أوحى إلى حماد الراوية بهذا الشعر الذى لا يمكن نظمه إلا من رجل حضرى على طراز حماد ، أو لعل القصة موضوعة من أساسها إن أردنا أن نذهب مذهب الشك فى أكثر أقوال حماد .

والظاهر أن إعراض العباسيين عن « حماد » الذى كان يلتجىء إلى الأمويين هو الذى حمله على مغادرة « بغداد » فى أيام المنصور بعد أن وفد إليها يلتمس الرزق فى قصور خلفاء بنى العباس . والظاهر أن الحظ كان قد ابتعد عنه وظل يبتعد عنه ولا سيما فى أيام المهدى عدو الزنادقة اللدود . وكان حظ أكثرهم مثل حظ حماد . ويقال إنه سافر بعد ذلك من الكوفة إلى البصرة حيث كانت له هنالك عصابة ثم عاد بعدئذ إلى بغداد . ولكنه وجد إعراضاً من المهدى ومطاردة فاضطر إلى مغادرة العاصمة إلى أن توفى عام ١٥٥ أو ١٥٦ أو ١٥٨ للهجرة [2]

(١) العقد الفريد حـ ٦ ص ١٧٨ وما بعد .
(٢) الأغانى حـ ٩ ص ١١٠
(٣) فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين ص ٢٠٣

(١) العقد الفريد حـ ٦ ص ١٥٨
(٢) ابن خلكان حـ ١ ص ٢٠٧ ، الأغانى حـ ٣ ص ٨٠

مسكين حماد! كان شاعراً مجيداً من الشعراء المجيدين. وكان ذكياً شاطراً ما فى ذلك شك، وكان حافظاً ما فى ذلك شك أيضاً؛ غير أنه لم يستغل ذكاءه ولم يستعمل مواهبه فى قول الشعر فكان كصاحبه خلف الأحمر ينظم باسم الغير، ويقول الشعر ثم ينسبه إلى القدماء. ولعله كان يجد فى ذلك رواجاً أكثر من رواج النظم المنسوب إلى نفسه، وهو رجل يريد أن يعيش وأن يتنعم؛ ولكن ما ضره لو نسبه إلى نفسه؟ ألم يعش كثير من أترابه الشعراء على حساب شعرهم!

لقد كان خلف الأحمر أحسن منه حظاً ولا شك، فقد حفظ الرواة عنه ما لم يحفظوه عن حماد، وذكروا عنه ما لم يذكروه عن زميله حماد. ولم نجد فى الكتب من أخبار حماد غير اليسير مع كل البالغات التى رويت عن محفوظه من الشعر، لقد ذهبت معه إلى القبر فقبرت معه إلى أبد الآبدين.

والعادة كما يقول العوام أن تطول رجل الإنسان بعد الموت؛ غير أن رجل حماد ظلت قصيرة، فلم يتبار الناس فى رثائه، ولم يعبأ إخوانه على ما يظهر لوفاته، إنهم لا يقيمون وزناً إلا للأحياء؛ أما الأموات فإلى الناس آخرين، فلم يرد مما قيل فى رثائه غير ما رثاه به عبد الأعلى بن عبد الله بن خليفه أبو يحيى محمد بن كناسة بقوله:

لو كان ينجى من الردى حذر ... نجاك مما أصابك الحذر
يرحمك الله من أخى ثقة ... لم يك فى صفو ودّه كدر

فهكذا يفسد الزمان ويفنى العلم فيه ويدرس الأثر (١)

وحماد هو الذى جمع السبع الطوال فيما ذكره أبو جعفر النحاس (٢) والتى يقال لها « المعلقات السبع » . جمعها من قصائد كثيرة واختارها من بين الشعر الجاهلى اختياراً، والتى قيل عنها إنها كانت قد كتبت بالذهب وعلقت بالكعبة. والتى شرحها جماعة من الشرّاح. والتى جاء عنها فى « جمهرة أشعار العرب »

« وقال الفضل القول عندنا ما قاله أبو عبيدة فى ترتيب طبقاتهم وهو أن أول طبقاتهم أصحاب السبع معلقات وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفه ابن العبد. قال الفضل هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسمى العرب بالسموط ومن زعم غير ذلك فقد خالف جمهور العلماء..»

وقد أورد أبو زيد محمد القرشى أسماء الطبقات الأخرى مثل الجمهرات والمذهبات .. الخ. (٣)

ويرى المستشرق « نولدكه » أن اسم « السموط » الذى أوحى إلى مخيلة الرواة بوضع تلك القصص عن المعلقات السبع وعن تعليقها فى جوف الكعبة دون دليل قائم ولا حجة مقنعة، مع أن رواة السيرة والمغازى لم يذكروا عند بحثهم فى مكة من أمر هذه المعلقات شيئاً كما أن الحديث النبوى لم يتعرض لها. وهذا ما يجعلنا نشك فى صحة ما ورد من روايات.

الدكتور جواد على

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٧

(١) جمهرة أشعار العرب. Cod. Berlin. Sqrenger.

(٢) noldike, Beitrage njur Kennlniss der poesie der dten Araber, Hannover, 1864 P, xx.

إعلان

تعلن مصلحة السجون أن لديها وظيفة مترجم من الدرجة السادسة الداعمة التى مرتبوطها (١٨٠ — ٣٠٠) جنيه فى السنة خالية ويشترط فى التعيين بها أن يكون الطالب مصرى الجنس لائقاً للخدمة طبياً حاصلا على مؤهلات تؤهله لشغل هذه الوظيفة وله إلمام تام باللغتين الإنجليزية والفرنسية ويفضل من يكون له أيضا المام باللغتين الإيطالية واليونانية فعلى من يرغب فى التعيين بها أن يقدم طلبه بذلك على الاستمارة ١٦٧ ع . ح يرسم سعادة مدير عام مصلحة السجون فى ميعاد لا يتجاوز ٢٠ مارس سنة ١٩٤٨ وعلى موظفى الحكومة الذين يرغبون فى التعيين أن يقدموا طلباتهم بواسطة الجهات التابعين لها. ٩٠٣٠